





جامعة تيسمسيلت

المعيار

مجلة نصف سنوية متعددة التخصصات
مصنفة " C "

في الآداب، الحقوق والعلوم السياسية، العلوم الاقتصادية
والعلوم الإنسانية والاجتماعية

عدد خاص أبريل 2024

EISSN 2602-6376

ISSN 2170-0931

المعيار

مجلة نصف سنوية متعددة التخصصات
مصنفة " C "



شروط النشر وضوابطه

-المعيار مجلة علمية مصنفة تنشر البحوث الأكاديمية والدراسات الفكرية والعلمية والأدبية التي لم يسبق نشرها من قبل.

- دورية تصدر مرتين في السنة عن جامعة بتيسمسيلت. الجزائر.

- تُقبل البحوث باللغات العربية والفرنسية والانجليزية.

- ضرورة وجود مختصر أو تمهيد للمقال سواء باللغة العربية أو الأجنبية.

- تخضع البحوث والدراسات المقدمة للمجلة للشروط الأكاديمية المتعارف عليها.

- تخضع البحوث للتحكيم من طرف اللجنة العلمية للمجلة.

- تتم الكتابة بخط (Traditional Arabic) حجم (15)، وفي الهامش بالخط نفسه حجم (14).

- تتم كتابة البحوث كاملة أو الفقرات والمصطلحات والكلمات باللغة الأجنبية داخل البحوث المكتوبة باللغة

الفرنسية بخط (Times new roman) حجم (12)، وفي الهامش بالخط نفسه حجم (10).

- تكون الهوامش والإحالات على طريقة أسلوب APA

- لا يقل حجم البحث عن 08 صفحات ولا تتجاوز 15 صفحة.

- المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها، والمجلة غير مسئولة عن آراء وأحكام الكتاب. كما أن ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات تقنية وفنية.

المدير المسنول عن النشر

أ. د. عيساني امحمد.

المعيار

عدد خاص أبريل 2024

مجلة نصف سنوية متعددة التخصصات

مصنفة " C "

تصدر عن جامعة تيسمسيلت - الجزائر

توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير

عن طريق البوابة الإلكترونية www.asjp.cerist.dz

جامعة تيسمسيلت. الجزائر.

البريد الإلكتروني: www.cuniv.tissemsilt.dz

EISSN 2602-6376

ISSN 2170-0931

رئيس المجلة:

أ. د. دهوم عبد المجيد

المدير المسؤول عن النشر:

أ.د. عيساني محمد

رئيس التحرير:

أ.د. مرسي رشيد.

نواب رئيس التحرير:

أ.د. واضح أحمد الأمين، أ.د. علاق عبد القادر، أ.د. العيداني الياس، أ.د. عطار خالد، أ.د.

لكحل فيصل، أ.د. قاسم قادة د. دهقاني أيوب، د. بوسكرة عمر.

سكرتيرا المجلة:

عرجان نورة، سلطاني محمد رضا

هيئة التحرير:

أ.د. غربي بكاي، أ.د. قاسم قادة، د. عطار خالد، د. صالح ربوح، أ.د. مصايح محمد، د. بن رابح خير الدين، د. بوسيف إسماعيل، أ.د. بوراس محمد، أ. د. شريط عابد، د. محي الدين محمود عمر، أ.د. روشو خالد، أ.د. العيداني إلياس، أ.د. فايد محمد

الهيئة العلمية:

من جامعة تيسمسيلت: أ.د. بشير دردار، أ.د. بن فريجة الجلالي، أ.د. أحمد واضح أمين، أ.د. تواتي خالد، د. ربوح صالح، أ.د. غربي بكاي، أ.د. بوركبة ختة، أ.د. طعام شاحنة، أ.د. شريف سعاد، أ.د. يعقوبي قدوية، أ.د. مرسل مسعودة، أ.د. بن علي خلف الله، أ.د. رزايقية محمود، د. بوغاري فاطمة، أ.د. قردان ميلود، أ.د. يونس محمد، أ.د. فتوح محمود، أ.د. عيسى حورية، د. بوضوار صورية، وسواس نجاة، أ. د. بوزيان أحمد، من جامعة صفاقس، تونس: أ. د. عبد الحميد عبد الواحد، د. بوبكر بن عبد الكريم، من جامعة المنصورة، مصر: د. محمد كمال سرحان، من جامعة طرابلس، ليبيا: د. أحمد رشراش، من الجامعة الأردنية، الأردن: أ. د صادق الحايك، من جامعة الجزائر 03، الجزائر: د. فتحي بلغول، من جامعة لمين دباغين، سطيف: أ. د بوطالي بن جدو، من جامعة وهران: أ. د. مخطار حبار، من جامعة سيدي بلعباس: أ. د. محمد بلوحي، من جامعة سعيدة: د. عبد القادر راجحي، من جامعة تلمسان: أ. د. محمد عباس، أ. د. عبد الجليل مرتاض، من جامعة تيزي وزو: أ. د. مصطفى درواش، من جامعة مستغانم: د. منصور بن لكحل، من جامعة زيان عاشور، الجلفة: د. حربي سليم، د. علة مختار، عروي مختار، من جامعة حسيبة بن بوعلي، شلف: أ. د حفصاوي بن يوسف، أ. د موسى فريد، د. بوراس محمد، د. علاق عبد القادر، د. روشو خالد، أ.د. مرسي مشري، د. لعروسي أحمد، د. قززان مصطفى، د. زرقين عبد القادر، د. محمودي قادة، أ.د. العيداني إلياس، د. عيسى سماعيل، د. بوزكري الجيلالي، د. ضويفي حمزة، د. كروش نور الدين ، د. بوكريد عبد القادر، د. عادل رضوان. من جامعة ابن خلدون تيارت: أ. د. عليان بوزيان، أ. د. فتاك علي، أ. د. بو سماحة الشيخ، أ. د. بن داود إبراهيم، أ. د.

شريط عابد. UNIVERSITIE PAUL SABATIER TOULOUZE 03. FRANCE: CRISTINE

Mensson

كلمة العدد الخاص بالملتقى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يأتي هذا العدد الخاص من إعداد مجلة المعيار، مجلة مصنفة (C)، كجمع لأعمال الملتقى الوطني الذي عقد بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، بتاريخ 05 مارس 2024، إشراف "مخبر الدراسات الفلسفية وقضايا الإنسان والمجتمع في الجزائر"، في سلسلة نشاطات الفرقة رقم (01) بعنوان "أسس ومرجعيات الفكر الجزائري" وبالتنسيق مع مشروع البحث PRFU-2023 بعنوان "سؤال الثقافة في الفكر الجزائري المعاصر" برئاسة أ.د. / لكحل فيصل.

تكمن أهمية أعمال هذا الملتقى "الفلسفة وسؤال الثقافة في الجزائر" في كونها تستحضر البعد الفلسفي في فهم ما ندعوه (ثقافة؟)، أو من خلال مقارنة مسألة الثقافة في أفق المسألة الفلسفية، لا من حيث كون الفلسفة نظرية في الثقافة تبغي التنظير أو التأسيس لما هو ثقافي، لأن مسألة الفلسفة في الجزائر هي بحد ذاتها بحث إشكالي يحتاج هو الآخر إلى أن يفكر وأن يسأل: هل هناك فعلا فلسفة في الجزائر يمكنها أن تؤسس لما هو ثقافي؟ ولهذا السبب بالضبط فإن ما ندعوه (فلسفي) وما ندعوه (ثقافي) يتجاوز بشكل مطلق التأثير السببي أو البعد العلائقي إلى ما يفتح ماهية كل منهما على الآخر: ما الفلسفة؟ وما الثقافة؟

الكل يتكلم عن الثقافة الجزائرية في جميع أنواع الخطاب (الإعلامي، السياسي، الديني)، لكن هل فكرنا سؤال ما الثقافة الجزائرية؟ ما هي حدود استعمال هذه الكلمة (ثقافة)؟ هل هناك ثقافة بالمفرد؟ أم الثقافة "بال" التعريف؟ أم هناك ثقافات؟ ما الذي يمكن أن نسميه ثقافة في الجزائر؟ وإذا كان مفهوم (الثقافة) في منظور علم الإناسة والأنثروبولوجيا يتسع ليشمل كل ما هو عام وكلي في المجال الإنساني، كيف يمكن والحالة هذه أن نفكر (الثقافة) في الواقع النفسي والاجتماعيين الجزائري؟ ووفق أي منظور؟

إن الهدف الأقصى لأعمال هذا الملتقى هو تفكير هذه الأسئلة ومحاولة إيجاد الخط الناظم الذي يمكن أن ينتظم في أفقه التفكير الصحيح والسليم لما ندعوه ثقافي؟ وبالتالي تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة والمتوارثة التي تأسست في الوعي الفردي والجماعي، ومحاولة قراءة التاريخ والحاضر في ضوء الفكر الذي يفكر الثقافة على محك المسألة الفلسفية.

وأخيرا نتمنى أن يجد القارئ في المداخلات التي يحملها هذا العدد بين دفتيه ما يثير حفيظتهم إلى طرح الأسئلة ويفتح باب المناقشة فيما بينهم لإزالة الالتباس والغموض حول الكثير من المسائل الشائكة في فهم مسألة الثقافة في الجزائر.

ومن باب شكر أهل الفضل على فضلهم أتقدم باسمي ونيابة عن الهيئة العلمية والتنظيمية للملتقى بجزيل الشكر إلى الطاقم المشرف على مجلة المعيار، على رأسهم الأستاذ الدكتور "دهوم عبد المجيد" رئيس المجلة، والأستاذ الدكتور "عيساني امحمد" المدير المسؤول على النشر، ورئيس التحرير الأستاذ الدكتور "مرسي رشيد"، ونواب رئيس التحرير، كما لا ننسى السيدة "عرجان نورة" سكرتيرة المجلة، الذين لم يدخروا جهدا على المساهمة في نشر أعمال الملتقى وإعادة تحكيمها وترتيبها، فلهم جزيل الشكر والامتنان.

أ.د. لكحل فيصل

رئيس الملتقى، المشرف على العدد

محتويات العدد

الرقم	الموضوع	الصفحة
	كلمة العدد: أ.د. لكحل فيصل	هـ
01	إبستمولوجيا الفكر والثقافة لدى محمد أركون ط.د. سفيان جويده، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	09-1
02	أبو القاسم سعد الله وإسهاماته في الحفاظ على الهوية الثقافية من خلال مؤلفه (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزائرية ط.د. بوحسين جلول، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	22-10
03	البخاري حمادة وقراءته الفلسفية والثقافية للثورة التحريرية من خلال مؤلفه "فلسفة الثورة الجزائرية" ط.د. حميدة فاطيمة، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	38-23
04	الثقافة المتأصلة ودورها في بناء المجتمع عند مولود قاسم د. مبارك فضيلة، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	46-39
05	الثقافة ودورها في بناء الوعي السياسي قراءة في فكر مالك بن نبي ط.د. عبايد نورية، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	55-47
06	الخطاب الفلسفي ورهانات الوعي الثقافي في مشروع عبد الله شريط د. نصيرة بوطغان، جامعة سطيف2	66-56
07	العلاقة بين الفلسفة والثقافة وأثرها في الجزائر د. رايح عيسو، أستاذ محاضر بجامعة الجزائر2	78-67
08	الفعل الثقافي ودوره في بناء الفرد والمجتمع عند مالك بن نبي ط.د. بوبكر عبد النور، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	88-79
09	المنطلقات الفكرية في النص الخلدوني د. قاتل إلهام، جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي-تيسمسيلت-الجزائر-	101-89
10	المنهج التاريخاني في فكر محمد أركون د. سحوان رضوان، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	110-102
11	حضور المثقف وغياب المثقف النقدي في اليومي الجزائري د. محمدي بلخير، جامعة مولود معمري تيزي وزو	127-111
12	فلسفة الثقافة السياقات والمفاهيم، بين تعدد المعاني والدلالات ووحدها أحمد مارييف، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر	141-128
13	مقتضيات التأسيس لخطاب فلسفي في الجزائر "جدلية الثقافي والفلسفي" د. بهلول عبد القادر، جامعة ابن خلدون، تيارت-الجزائر-	151-142

أبو القاسم سعد الله وإسهاماته في الحفاظ على الهوية الثقافية الجزائرية
من خلال مؤلفه (تاريخ الجزائر الثقافي)

**Abu al-Qasim Saadallah and his contributions to preserving the
Algerian cultural identity through his book (The Cultural History
of Algeria)**



ط.د. بوحسين جلّول

مخبر الدراسات الفلسفية وقضايا الإنسان والمجتمع في الجزائر

جامعة ابن خلدون – تيارت، - الجزائر-

djelloul.bouhasine@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2023/09/18 تاريخ القبول: 2024/01/28

ملخص:

إن مقالنا هذا يتناول سؤال الثقافة في الجزائر، الذي لا يمكن الوقوف عليه بالدرس والتحليل للمشهد الثقافي الراهن إلا إذا وقفنا على كرونولوجيا الثقافة الجزائرية ومنابعها الأصيلة. والعوامل التي تؤثر في المسار الثقافي عبر الزمن. ويعد أبو القاسم سعد الله من أكثر الباحثين تنقيبا عن منابع ومقومات ثقافتنا. متّخذا منها مادة لبلورة آرائه الفكرية والثقافية، التي جعلته مصطفا مع النخبة الجزائرية المتشعبة بالثقافة العربية الإسلامية، الحاملة على عاتقها مهمة التصدي للتيار الفرانكفوني الذي يعمل مجتهدا على تهجين الثقافة الجزائرية وإصباغها بصبغة غربية خالصة. موهما النشء بأن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن لها ماضٍ سياسي أو ثقافي. حيث تمّ التوصل إلى أن ثقافتنا الجزائرية واحدة في عربية إسلامية تشكلت وتبلورت في صورتها النهائية قبل الاحتلال الفرنسي لبلادنا بأزمته بعيدة فوجدتنا الثقافية هي التي أبقت الأمة متماسكة وواقفة في وجه أعتى آلة استعمارية دامت 132 سنة. وإن المثقف تكمن مهمته في حيابة وتفعيل هذه الثقافة بعيدا عن المؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي: الهوية الثقافية: الثقافة: المثقف.

Abstract:

Our article addresses the question of culture in Algeria. Which cannot be understood by studying and analyzing the current cultural scene unless we examine the chronology of Algerian culture and its original sources. And the factors that affect the cultural path over time. Abu Al-Qasim Saad Allah is considered one of the researchers who explore the sources and components of our culture the most. Taking it as material to crystallize his intellectual and cultural views, which aligned him with the Algerian elite, saturated with Arab-Islamic culture, carrying the task of confronting the Francophone movement, which works diligently to hybridize Algerian culture and imbue it with a purely Western character. Misleading people into believing that Algeria, before the French occupation, had no political or cultural past. It was concluded that our Algerian culture is one; it is an Arab-Islamic culture that was formed and crystallized in its final form before the French occupation of our country, a distant crisis. Our cultural unity is what kept the nation together and standing in the face of the most powerful colonial machine that lasted 132 years. The intellectual's skill lies in possessing and activating this culture away from political, economic and social influences.

Key words: Abu Al-Qasim Saadallah; The Cultural History of Algeria; cultural identity; the culture; The intellectual.

ط.د. بوحسين جلّول

مقدمة:

شكل سؤال الثقافة في الجزائر مجال بحث للكثير من المفكرين الجزائريين على اختلاف مرجعياتهم الفكرية وخلفياتهم الثقافية. ولعلّ أبو القاسم سعد الله يعدّ من أشهر المؤرخين وأعلام الفكر والثقافة في الجزائر بمؤلفاته التي أثنى بها المكتبة الجزائرية خاصة والمكتبة العربية عامة. ولاسيما مؤلفه (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي صرح فيه قائلاً: (أنّ المستعمرين الفرنسيين قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنّه لم يكن لأهلها ماضٍ سياسي ولا ثقافي، وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرص على البحث والتنقيب. فالجزائر قد ظلمها أعداؤها وأشقاؤها على السواء. ((وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء))) (سعد الله 1998، ج1، ص13). ومن هنا تظهر جليا المقاربة التي سيعتمد عليها أبو القاسم سعد الله في تحليله للمشهد الثقافي الراهن للوقوف على مصادر الوعي الثقافي عند الجزائريين من خلال بحثه في التاريخ الثقافي الجزائري للكشف عن مقومات الهوية الثقافية للجزائريين. فبعد أن فقدت الجزائر سلطتها السياسية أمام القوة الاستعمارية الفرنسية التي أعلنت بأنّها تحمل رسالة حضارية جاءت بها من أجل انتشال الجزائريين من الجهل والتخلف الحضاري والثقافي الذي تسبب فيه الحكم العثماني الإسلامي. إلا أنّ أول ما قام به المستعمر وبعد توقيعه على اتفاق الاستسلام مع الدّاي حسين سنة 1830م -الذي يقضي بأنّ الفرنسيين سيحترمون الدّين الإسلامي واللغة العربية- هو محاربة اللغة والدّين بالتضييق على رجال الدّين والعلماء الذين كانوا يعتبرون صمام أمان لثقافة ذلك العهد. فأغلقوا ودمروا المدارس ودور العبادة من مساجد وزوايا، ودفعوا بالعلماء الى الهجرة وضيّقوا على رؤساء الطّرق الصّوفية ومشايخ الزّوايا ومدرسي المدارس العربيّة التي كانت منتشرة في كلّ البلاد. فالصّراع صراع ثقافات بين كلّ ما هو جزائري وكلّ ما هو فرنسيّ غربيّ. فكانت المعركة ومازالت الى الآن بين اللّغتين الفرنسيّة والعربيّة من جهة، وبين الحضارتين الغربيّة والإسلامية من جهة أخرى. وهذا الصّراع يتخذه أبو القاسم سعد الله كمرجعية تاريخيّة على أساسه يحدد موقفه من الرّاهن الثقافي الجزائري. مما يضعنا أمام السّؤال الثقافيّ التّالي: ما هي مقومات الهوية الثقافيّة الجزائريّة عند أبي القاسم سعد الله؟ وما مدى ارتباط المشهد الثقافيّ الجزائريّ الحاضر بالإرث الثقافيّ في الماضي؟ .

ولتبيان مقومات الهوية الثقافيّة الجزائريّة والتّطور الثقافيّ عبر الزّمن وأثره على المشهد الثقافيّ الجزائريّ الرّاهن من خلال مؤلف (تاريخ الجزائر الثقافيّ) الذي بلور أراء أبي القاسم سعد الله. كموقفه من بعض القضايا الثقافيّة. اعتمدت على المنهج التحليلي لدراسة ما جاء في الكتاب الذي يعتبر بحق موسوعة ثقافيّة ركزت فيها على الفترة العثمانيّة، والسّنوات الأولى للاحتلال الفرنسي لبلادنا على أساس أنّ هذه الحقبة لدى أبي القاسم سعد الله تمثل مرجعيّة للبعد التاريخي والجغرافي للثقافة الجزائريّة.

المبحث الأول: الهوية الثقافية الجزائرية عند أبي القاسم سعد الله المطلب الأول: المسار التعليمي والنضالي وانعكاساته على مؤلفاته الفرع الأول: التاريخ والأدب والفكر.

لعل أهم ما يمكن أن نستشفه من السيرة التعليمية والتعليمية والنضالية لأبي القاسم سعد الله* أنه كان لها انعكاس واضح في بلورة آرائه الفكرية والثقافية، وإنتاجاته الكتابية. فجاءت غزيرة ومتنوعة حول مختلف المواضيع التي كتب فيها. كالأدب انعكاسا للتخصص الذي درسه بكلية دارالعلوم في مصر حيث جمع بين الأدب واللغة العربية والدراسات الإسلامية، فتحصل منها على شهادة الليسانس ثم الماجستير عن مؤلفه (شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة). وعندما التحق بجامعة ميسوتا الأمريكية لمواصلة دراسته العليا، قام بتغيير التخصص من الأدب إلى التاريخ الذي درسه وبرع فيه. ثم اتخذه مجالا للتدريس والبحث بعد تحصل على شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ والعلوم السياسية عن أطروحته حول (الحركة الوطنية 1930-1954م). ولما التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني سنة 1956م، وكان من قيادات جمعية العلماء المسلمين بتونس ورئيس جمعية الطلبة الأفارقة بالولايات المتحدة الأمريكية. انعكس ذلك على آرائه المختلفة خاصة ما تعلق منها بالجانب الثقافي التي أرادها أن تكون متحررة من التبعية للغير، وثورية ضد كل مخلفات الاستعمار، نابعة ومعبرة عن كل ما هو عربي إسلامي (خالدي، 2016، الصفحات 245-269).

على العموم يمكن تصنيف الإنتاج الكتابي لأبي القاسم سعد الله إلى ثلاثة حقول بارزة وهي: -حقول التاريخ السياسي -الحقل الأدبي والفكري وأخيرا حقول التاريخ الثقافي. وأخص بالذكر.

أولاً: التاريخ

ففي التاريخ كان له من جملة ما ألف -الحركة الوطنية من أربعة أجزاء. الذي تحصيل من خلاله على درجة الدكتوراه من جامعة ميسوتا، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، حياة الأمير عبد القادر، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر من خمسة أجزاء، الجزائر وأوروبا. مسار قلم من ستة أجزاء، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي.

ثانياً: الأدب والفكر

أذكر له من الكتب: شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة الذي نال من خلاله درجة الماجستير من جامعة القاهرة بمصر، النص للجزائر، ناثروحب، الزمن الأخضر، سعفة خضراء، دراسات في الأدب العربي الحديث، حكاية العشاق، القاضي الأديب، تجارب في الأدب والرحلة، أشعار جزائرية (عيفة، 2015، الصفحات 1-26).

* أبو القاسم سعد الله (1930-2013م) من واد سوف -الجزائر، مؤرخ وأديب ومفكر جزائري، مارس التعليم في الجامعة الجزائرية قرابة 30 سنة. أنظر مقال الحاج العيفة (السيرة الذاتية لشيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله) صادر عن مجلة دراسات تاريخية.

الفرع الثاني: تاريخ الجزائر الثقافي

المعروف في أوساط المؤرخين الجزائريين في كتابة التاريخ أنه يتم وفق كرونولوجيا واضحة المعالم في تدوينه سياسيًا وعسكريًا. أما أن يتم تناوله من الجانب الثقافي فهذا ما تفرد به أبو القاسم سعد من خلال مؤلفه (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي يقع في عشرة مجلدات تحتوي على أكثر من 4500 صفحة ممتد على خط زمني يقارب أربعة قرون ونصف قرن من عهد التواجد العثماني بالجزائر 1500م إلى غاية الاستقلال سنة 1962م. مقسّمًا إلى ثلاث حقب زمنية متتالية ومتعاقبة. حقبة الحكم العثماني وتمتد من سنة 1500م إلى سنة 1830م، وتقع في مجلدين هما الجزء الأول والثاني. وحقبة الاحتلال الفرنسي والتي بدورها تنقسم إلى مرحلتين. الأولى تبدأ من بداية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م إلى سنة 1954م وتقع في خمسة مجلدات تمثل الأجزاء من ثلاثة إلى ثمانية. والثانية أثناء الثورة التحريرية الكبرى من سنة 1954م إلى غاية استرجاع السيادة الوطنية سنة 1962م، وتقع في مجلد واحد يمثل الجزء العاشر. أما المجلد التاسع فاحتوى على فهرست الأماكن والأشخاص التي تمّ تناولها في الموسوعة الثقافية كما يحبّ أبو القاسم سعد الله تسميته (ولو طلب إليّ أن اختار تسمية جديدة لهذا الكتاب لاخترت له اسم (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، ذلك أن أجزاءه الجديدة تضي عليه هذا الطابع عن جدارة) (سعدالله، ج1، ص10). فقد بذل الكثير من الجهد والوقت (هذا الكتاب هو ثمرة جهود دامت حوالي ربع قرن) (سعدالله، ج1، ص13)، حيث كان مضطرا إلى قراءة وتبعية المسار الثقافي الجزائري على مدار أربعة قرون ونصف القرن، من انتقال العلوم وهجرات العلماء وتبعية المخطوطات التي انتشرت في مختلف بلدان العالم بسبب استيلاء المستعمرين والمستشرقين عليها، والذين درسوا وألفوا عن الجزائر والجزائريين، أو بسبب هجرة علمائها وتفرقهم في مختلف الدول العربية والغربية (وليس ادعاء أن أقول إنّ مصادر هذا الكتاب كثيرة ومتنوعة وإنّ البحث عنها قد كلفني التنقل بين مكتبات الجزائر والسفر إلى عدد من المكتبات الأجنبية) (سعدالله، ج1، ص31)

كما أنّ التّمييز في هذا الكتاب يرجع إلى أنّه لم يكن يحمل مفهوم التاريخ فقط بل حمل معه مفهوم الوعي بالتاريخ في صناعة هوية الأمة. فمن خلال كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) نستشف بأن هوية الأمة تكمن في الثقافة وليس في السياسة. فالسلطة السياسية تذهب وتأتي. أمّا الذي يحمي الأمة ويبقيها متماسكة هو هويتها ووحدتها الثقافية، وهذا ما سنحاول تناوله بالدرس والتحليل من أجل إظهار موقف شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله حول مقومات الهوية الثقافية الجزائرية ومدى ارتباط حاضرها بماضيها الثقافي.

المطلب الثاني: مقومات الهوية الثقافية الجزائرية

لا شك أنّ الهوية الثقافية هي المرآة التي تعكس الخصوصية التاريخية لجماعة ما أو أمة ما؛ حيث تمثل حصيلة جملة من التراكبات الثقافية والمعرفية عبر الزمن، وتلك المعارف تأتي انطلاقا من تقاليد وعادات في العائلة والمجتمع المحيط بالفرد، والتي يعيشها ويتعلّمها منذ ميلاده فتكون الأساس في تكوينه طيلة حياته وتصبح جزءا من طبيعته الفكرية والعقائدية والاجتماعية (الحلايقية، 2018).

والهوية الثقافية لأية أمة من الأمم تشكلها عناصر ثابتة تتمثل في اللغة والدين، وأخرى متغيرة تجمع بين المؤثرات الثقافية الوافدة على هذه الثوابت وهي متمثلة في عصرنا الحديث في العالم الغربي الذي اتصل بنا

وفرض وجوده علينا وحاول التأثير فينا حضاريًا وثقافيًا نتيجة الحملات الاستعمارية سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية (الزرقاوي، 2019).

فَالَّذِي يَهْمُنَا هُنَا الثَّابِت (اللُّغَةُ وَالدِّين) الَّذِي يَجْمَعُنَا كَأَمَّةٍ جَزَائِرِيَّةٍ لَهَا تَارِيخٌ ثَقَافِيٌّ عَرِيقٌ لَا الْمَتَغَيَّرُ الظَّرْفِي فَأَبُو الْقَاسِمِ سَعْدُ اللَّهِ يُولِي أَمِّمِيَّةً بِاللُّغَةِ لِلثَّقَافَةِ كَمَا سَبَقَ وَأَنْ ذَكَرْتُ، لِأَنَّ الْأُمَّةَ قَدْ تَفَقَّدَ اسْتِقْلَالَهَا يَوْمًا مَا مِثْلَمَا حَدَثَ فِي الْجَزَائِرِ حَيْثُ فَقَدَتْ سِيَادَتَهَا الْوِطْنِيَّةَ مَدَّةَ 132 سَنَةً، لَكِنَّ الثَّقَافَةَ هِيَ الَّتِي أَبْقَتْ الْأُمَّةَ مَتَمَاسِكَةً بِلُغَتِهَا وَدِينِهَا وَعَادَاتِهَا وَتَقَالِيدِهَا. رَغْمَ أَنَّ الْمُسْتَعْمَرَ حَاولَ ضَرْبَ مَقُومَاتِ الْهَوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلْجَزَائِرِيِّينَ فِي مَقْتَلِ تَارَةٍ بِالْتَّرْغِيبِ عَنِ طَرِيقِ الْمُبْشِرِينَ وَالْمُسْتَشْرِقِينَ، وَشَرَاءِ الذَّمِّ بِالمَالِ وَالْمَنَاصِبِ الْإِدَارِيَّةِ وَتَارَةٍ أُخْرَى بِالْتَّرْهِيْبِ مِنْ خِلَالِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُمَارَسَاتِ الْقَمْعِيَّةِ كَنَفْيِ الْعُلَمَاءِ وَمَشَايِخِ الطَّرِيقِ الصَّوْفِيَّةِ وَالزَّوَايَا وَالْقَتْلِ وَتَدْمِيرِ الْمَدَارِسِ وَالْمَسَاجِدِ وَتَهْجِيرِ السَّكَّانِ مِنْ أَرَاضِهِمْ.

الفرع الأول: اللُّغة

أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدُ اللَّهِ مِنَ الْمُدَافِعِينَ عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ. فْفَرَنْسَا عِنْدَمَا خَرَجَتْ مِنَ الْجَزَائِرِ تَرَكَتْ وَرَاءَهَا أَلْغَامًا لُغَوِيَّةً فِي أَنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تَجْعَلَ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً مُنَافِئَةً وَهِيَ الْفَرَنْسِيَّةُ الَّتِي يُمَثِّلُهَا التِّيَّارُ الْفَرَانْكَفُونِي الْمَتَغَلْغَلُ فِي كُلِّ الْمَوْسَسَاتِ. إِضَافَةً لِمَحَاوَلَتِهِ تَمْكِينِ الدَّارِجَةِ الْعَامِيَّةِ عَلَى حِسَابِ الْفَصْحَى (وَحِينَ سَيَطُرُ الْفَرَنْسِيَّوْنَ عَلَى الْوَضْعِ فِي الْجَزَائِرِ -بَعْدَ 1850م- فَرَضُوا أَيْضًا شُرُوطَهُمْ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ فِي تَدْرِيسِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ. فَقَدْ شَجَعُوا اللَّهْجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَرْبَرِيَّةِ الدَّارِجَةَ لِإِمَاتَةِ الْفَصْحَى وَفَرَضُوا اللُّغَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ فِي الْمَدَارِسِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَوْسَسَاتِ التَّعْلِيمِ) (سَعْدُ اللَّهِ 1998، ج 3، ص 20)

فَمَوْضُوعُ اللُّغَةِ قَبْلَ سَنَةِ 1830م لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَيْةُ عَقْدَةٍ أَوْ مُشْكَلٍ يَذْكُرُ فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنا كُنَّا تَحْتَ الْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ وَأَنَّ الْحُكَّامَ كَانُوا أَتْرَاكًا أَوْ أَعَاجِمًا، إِلَّا أَنَّ لُغَةَ الْبَلَاطِ وَالتَّعَامُلَاتِ الرَّسْمِيَّةِ كَانَتْ هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْفَصْحَى (وَقَدْ كَانَتْ وَسِيلَةَ التَّوَاصُلِ بَيْنَ الْجَزَائِرِيِّينَ هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، مَهْمَا تَبَاعَدُوا فِي الْمَكَانِ، وَهِيَ لُغَةُ الْكِتَابَةِ عِنْدَهُمْ، وَلُغَةُ الْخُطَابِ الرَّسْمِيِّ، وَاللُّغَةُ الْأَدْبِيَّةُ وَالْدِينِيَّةُ. وَبِهَا كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ وَبِهَا كَانُوا يَحْرَرُونَ السَّجَلَاتِ الْقَضَائِيَّةَ وَالْمَدَاوِلَاتِ الْعَرَفِيَّةَ وَيَعْقِدُونَ الْإِتِّفَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةَ وَالصَّفَفَاتِ التَّجَارِيَّةَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَأْلِيفِ الْكُتُبِ وَقِرْضِ الشُّعْرِ) (سَعْدُ اللَّهِ، ج 8، ص 16).

فَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْفَصْحَى كَانَتْ وَمَا زَالَتْ لُغَةً الْإِبْدَاعِ الثَّقَافِيِّ الْجَزَائِرِيِّ الْأَسَاسِيَّةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا فِي بَعْضِ الْحَقَبِ الزَّمْنِيَّةِ تَرَاوَعَتْ عَنْ مَكَانَتِهَا لِصَالِحِ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ أَوْ اللَّهْجَاتِ الْعَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَرْبَرِيَّةِ بِسَبَبِ الْاسْتِعْمَارِ الَّذِي حَاولَ إِزَاحَتَهَا كَوْسِيلَةَ إِبْدَاعٍ أَدْبِيَّةٍ مِثْلًا حَيْثُ كَانَ يَتَجَهَّ إِلَى تَكْرِيسِ هَذَا الدَّوْرِ، مِمَّا أَدَّى إِلَى انْتِشَارِ الشُّعْرِ الشَّعْبِيِّ (وَهُوَ كَالشُّعْرِ الْفَصِيحِ، تَنَاولَ أَغْرَاضًا عَدِيدَةً، وَلَكِنَّهُ تَنَاولَ بِالْخُصُوصِ الْمَدَائِحَ النَّبَوِيَّةَ وَالتَّوَسُّلَاتِ وَمَدْحَ الْفَرَسَانِ وَالْأَبْطَالِ، وَالشُّكُوى مِنَ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ أَيْ مِنَ الظُّلْمِ وَالْحَرَمَانِ وَالسِّيَاسَةِ وَلَكِنْ بِطَرِيقَةٍ سَاخِرَةٍ أَيْحَانًا. وَفِيهِ يَجِدُ الْبَاحِثُ أَلْوَانًا مِنْ وَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَالْحُبِّ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَغَامِرَاتِ وَالصَّيْدِ، وَالْمَدْحِ

والفخر. وقد شاركت كلّ جهات الوطن في هذا اللون من التعبير. وكان الشّعر البدوي صافيا من تأثير الثقافة الفرنسية، ولكن شعر المدن قد تأثر بها، يظهر ذلك في كثرة الكلمات الأجنبية المعربة (سعد الله، ج 8، ص 307). فعمق الثقافة الوطنية يكمن في الصّراع القائم بين ثقافتين، ثقافة جزائرية تقوم على مكوّن أصيل ثابت هو اللغة العربية الفصحى من جهة وثقافة تقوم على مكوّن دخیل متمثل في اللغة الفرنسية. كما يعبر أيضا عن صمود المثقف الجزائري -المعلّم- في وجه الإدارة الاستعمارية التي تحظر تدريس اللغة العربية، بالإضافة إلى تعلق المواطن الجزائري بلغته الأصلية الواحدة (وقد كشفت تقارير المفتشين (وهم مستشرقون مرتبطون بالإدارة الاستعمارية) عن صمود المقاومة الثقافية وموقف المتعلمين من توجهات الإدارة. إنّ عمق الثقافة الوطنية يكمن في دراسة تفاعلاتها مع مخططات الاستعمار الفرنسي، وقد كانت تمثل خطأ موازيا للثقافة الفرنسية إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحية، فاشتد التنافس بين الثقافتين وساعد ظهور الأحزاب الوطنية على دعم هذه المقاومة (سعد الله، ج 3، ص 18). لهذا فعلى كما ينادي أبو القاسم سعد الله أن نسعى جميعا إلى أن تكون لغتنا العربية تواكب ركب التطور العلمي والتّقدم التكنولوجي، فجمود اللغة جمود لنا، ووحدة اللغة وازدهارها، حياتنا وازدهارنا نحن (حاج سعد، 2016).

الفرع الثاني: الدّين

(حكى أحد الفرنسيين أنّ القليل فقط من السّفارات الأوربية تملك محررين مهرة في فنّ الدبلوماسية يظاهون محررات ومراسلات شيوخ الطّرق الصّوفية، فهم من أرقى النّاس ذوقا في فنّ القول واختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الدّقيقة والعبارات البروتوكوليّة المهذبة) (سعد الله، ج 4، ص 24). من هذا القول يفهم بأنّ المتعلّم الذي تلقى تعليما موسّعا في علوم الدّين الإسلاميّ من علوم التّفسير وعلوم الحديث والفقه والتّوحيد... الخ، يتمتع بدراية واسعة باللغة وطريقة التّواصل مع الآخر بأسلوب راقٍ وحضاري يعكس نشأته العربية الإسلامية في أبهى صورها. فالعثمانيون وإن كانوا لم يهتموا بالتّعليم بصورة مباشرة وتركوا في ذلك الحرّية للأوقاف التي أنشأوها وضمّوا كلّ شؤون التّعليم إليها. إلا أنّهم من ناحية أخرى اهتموا بالدّين وكلّ ما يسهل على ممارسته (فالعثمانيون قد دافعوا في البداية عن الدّين الإسلاميّ وشجّعوا تيار التّصوف في البلاد وأوقفوا بعض الأوقاف على المؤسسات الدّينية، وساهموا في بناء الزّوايا والمساجد والكتاتيب، فكأنّ نظرهم إلى الدّين داخل البلاد كانت نظرة تعبديّة محضة) (سعد الله، ج 1، ص 18). فالعثماني أدرك منذ الوهلة الأولى بأنّ الذي يجمع الأمتة الجزائرية هو الدّين واللّغة. أما المستعمر الفرنسي فقد كان له رأي آخر بمحاصرة العلماء ورجال الدّين والتّضييق عليهم (ثمّ تدخلوا أيضا في طريقة تدريس الفقه، فحذفوا منه بعض الأبواب فأصبح ممنوعا مثلا على المدرّس أن يدرس باب الجهاد، ومنعوا أحيانا تدريس التّوحيد وأجبروا المعلمين على تحفيظ القرآن للأبناء دون تفسيره لهم) (سعد الله، ج 3، ص 20).

عندما دخل المستعمر إلى الجزائر انهر من التّنظيم المجتمعي على مستوى المؤسسات الدّينية والعلمية والقضائية في بلادنا حيث (وجد الفرنسيون ساعة الاحتلال هيئة دينية قائمة الذات، وكانت تتألف من العلماء

الذين يشملون القضاة والأئمة والمفتين والمدرّسين. الخ. وكان على رأس هؤلاء (شيخ الإسلام) الذي كان مقدما عن جميع العلماء وكان في المراسيم الرسمية يقدم على غيره احتراماً للدين والعلم) (سعد الله، ج4، ص350). وبإيعاز من المستشرق والمبشر-كما سيأتي تبينه لاحقا-فقد قام المستعمر بتعطيل عمل الهيئة الدينيّة بنفي شيخ الإسلام وتعطيل العمل بهذا المنصب سنة 1830م. أو باستمالة بعض ضعفاء النفوس من رجال الدين بالمال والمناصب الإدارية. وكذلك قامت السلطات الفرنسية في السنوات الأولى من الاحتلال بتجميد (المجلس العلمي) ثمّ انهوا دوره بالتدريج فقد (كان لرجال الدين (مجلس علمي) يحلّون فيه القضايا الكبيرة أو المعقدة ويحضره كبارهم، وكان على العموم مجلساً محترماً لأنّ الذين يحضرونه هم خيرت المتعلمين وأن القضايا معظمها تهمّ الصالح العام، وكان اجتماع العلماء في هذا المجلس فرصة لتبادل الآراء والمناظرة والرجوع إلى الكتب والنوازل) (سعد الله، ج4، ص369-370).

على الرّغم من هذا التضييق إلّا أنّ الجزائريين لم يمتنعوا عن إلحاق أولادهم بالكتاتيب والمساجد والزوايا من أجل أن يتعلّم الطّفل الجزائري الدّين الإسلاميّ شرحاً وفهماً، وكذلك كي يتشبع بالقيم الأخلاقيّة التي نشأت عليها الحضارة الإسلاميّة (وإذا كان الفرنسيّون قادرين على مراقبة التّعليم العربيّ الإسلاميّ في المساجد والزوايا. فإنّهم لم يكونوا قادرين على مراقبة التّربيّة والتّوجيه الصّالح للذين يبيّتهم المعلّمون في تلاميذهم، ومن هؤلاء ستكون البذرة الصّالحة الخيرة والحركة الإصلاحية) (سعد الله، ج3، ص20). ورغم كلّ المحاولات الفرنسيّة بإغلاق وهدم الزوايا والمساجد التي كانت منتشرة في كلّ البلاد حيث في العاصمة وحدها (كان عدد المساجد عند الاحتلال 122 مسجداً بين صغير وكبير (13 جامع كبير بالمنطق الفرنسي)) (سعد الله، ج5، ص11). بقي الإسلام يشكّل النّواة الحقيقيّة للهويّة الثقافيّة الجزائريّة المبنية على اللّغة العربيّة لسانا والدّين الإسلاميّ اعتقاداً ومعاملة. هذه الثّقافة حافظت على وحدة الجزائريين أمام أعنى قوّة استعماريّة عرفها التاريخ الحديث (فقد ذكر السيّد لويس رين الخبير في الشّؤون الجزائريّة في كتابه (مرابطون وإخوان) المنشور سنة 1884م أنّه بينما كان عدد الجزائريين (الأهالي) هو 2.846.757 فإنّ عدد الزوايا فهم قد بلغ 355 زاوية عبر القطر كلّها، كما كان هناك 1.955 مقدّماً و167.019 من الإخوان التّابعين.... أما الشّيوخ فقد وصل العدد إلى عشرين شيخاً من الكبار) (سعد الله، ج4، ص29). فالزاوية كانت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تساهم في تربيّة النّشء على التّعاليم الدينيّة الإسلاميّة وحثّ النّاس على الجهاد ضد الكفار المتمثلين في صورة الفرنسيين المستعمرين. والطّرق الصّوفيّة كلّها كانت تتفق في الحرص على تنفيذ الوصايا الخمس وتعليمها للنّاس وهي: (الخوف من الله تعالى، عدم حب النّاس أو كرههم إلّا الله أو في الله، والرضى بما حكمه وقدره الله للإنسان، وترك كلّ شيء لله يصرفه لأنّ كلّ شيء من عنده خيراً أو شراً، والعمل طبقاً للسّنة النبويّة) (سعد الله، ج4، ص17).

لهذا فإنّ أبا القاسم سعد الله يصرّح معترّاً بهويته الثّقافية، بمقاربة تاريخيّة تربط الماضي بالحاضر فيقول (وقد كانت هذه الثّقافة عربيّة إسلامية اشترك فيها الجزائريون من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها).

وهي ثقافة، مهما قيل إنها متقدمة أو منحلة. هي نحن في ماضينا، وهي التي نستمد منها اليوم ذاتنا وحقيقتنا (سعدالله، ج1، ص25).

المبحث الثاني: قضايا ثقافية متنوعة

المطلب الأول: التعليم والاستشراق والتبشير

الفرع الأول: التعليم وأثره على الحياة الثقافية

الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى لاحتلاله الجزائر قام بمحاربة اللغة والدين عن طريق محاربة تعلّمهما في المدارس والزوايا. باعتبار أنّ المدرسة والزوايا هما المؤسستان المنتجتان للثقافة وتخرج النخب المثقفة المتشعبة بالثقافة العربية الإسلامية، حيث كانتا منتشرتين في كافة البلاد. فقد بلغ عدد الزوايا 355 زاوية كما بينت سابقا، أما المدارس (ففي العاصمة كانت حوالي مائة مدرسة سنة 1830م، ولم يبق منها سنة 1840م سوى 24 مدرسة) (مسيد) يتردد عليها 600 تلميذ، وفي سنة 1846م انخفض عدد هذه المدارس إلى 14 فقط، يتردد عليها 320 و400 تلميذ) (سعد الله، ج3، ص24). أما في الشرق الجزائري بقسنطينة (فقد كان فيها مدارس من مختلف المستويات الإقليمية، فمدارسها الثانوية العليا تضم بين 600 إلى 700 تلميذ يدرسون علوم التفسير (القرآن) وعلوم الحديث، ومحاضرات في الحساب والفلك والبلاغة والفلسفة كما يوجد بها 90 مدرسة ابتدائية (مكتب) يتردد عليها ما بين 1300 و1400 طفل) (سعدالله، ج3، ص26) لكن منذ الاحتلال تدهور كل ذلك. أما في الغرب الجزائري فقد أصيب التعليم بالركود والجمود نتيجة للمعارك الكثيرة التي كانت تخوضها المقاومة بقيادة الأمير عبد القادر ضد المحتل الفرنسي (فهذه تلمسان ومعسكر ومستغانم ووهران، تعرضت جميعا إلى خروج أهلها عدة مرات ومنهم بالطبع المعلمون والتلاميذ وتعرضت المكتبات والمساجد والزوايا والمدارس إلى النهب والهدم، والهجران) (سعدالله، ج3، ص31).

فكل الذين درسوا التعليم بداية الاحتلال الذي كان باللغة العربية الفصحى اندهشوا من كثرة المدارس والكتاتيب والزوايا وحرية التعليم وكثرة المعلمين، ووفرة الوسائل من أجل دعم التعليم كالمداخيل الوقفية فالتعليم كان جزءا أساسيا من حياة الناس والمعلم والمتعلم كانا لهما مكانة عالية بين الجميع، وحب التعلم كان جزءا من العبادة. والجزائر كغيرها من البلدان العربية الإسلامية كان فيها التعليم واحدا للجميع (فالسيد والمسود والحاكم والمحكوم كلهم سواء في البذل من أجل تعليم أبنائهم في ديمقراطية متناهية إذ يلتقي أولاد الأغنياء وأولاد الفقراء على صعيد واحد ويتلقون نفس البرنامج على يد نفس المعلم، وبنفس اللغة والروح) (سعدالله، ج3، ص19). فالطفل الجزائري كان يتلقى تعليما يكمل بعضه بعضا في المراحل التعليمية المختلفة، من أجل أن يتخرج في نهاية المرحلة التعليمية رجل دين أو عالما أو أدبيا متشعبا بالثقافة والقيم العربية الإسلامية التي تمكنه من أن يكون فعالا في مجتمعه وناشرا للوعي والمعرفة (فإن وظيفة المدرسة الابتدائية كانت هامة، فهي تثقف وتربي الأطفال على قواعد الإسلام وعلى نمط اجتماعي محدد وهي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم

الذي هو أساس الثقافة الإسلامية. وهي تعلّم الأطفال مبادئ العلوم والقراءة والكتابة فيحفظون لسانهم من العجمة ويتوحدون في التفاهم والتخاطب حيثما كانوا، وهي أيضا تساهم في إعطاء الطفل رصيда من المعارف التي تساعد على شقّ طريقه في المجتمع بعد خروجه منها عندما يبلغ عادة الرابع عشرة سنة. وإلى جانب ذلك كانت المدرسة الابتدائية تعدّ شعبا محصنا لا يوجد فيه إلا عدد قليل من الأميين (سعد الله، ج 1، ص 279). فهذا التعليم هو الذي أنتج ثقافة المقاومة لدى الشعب الجزائري، وصقل الشخصية الوطنية الجزائرية المحبة للحرية والاستقلال الكارهة للاستعمار والاستعباد مفجرة بذلك لأكبر ثورة عرفها التاريخ الحديث والمعاصر.

الفرع الثاني: الاستشراق والتبشير

الاستشراق والتبشير وإن بدا أنهما مفهومان يختلفان عن بعضهما من حيث المعنى والمضمون، إلا أنهما وجهان لعملة واحدة يكمل بعضهما البعض، فهما كانا ولا يزالان أداة من أدوات الاستعمار الفرنسي لبلادنا عانينا منهما لمدة 132 سنة وما زلنا نعاني منهما حتى بعد الاستقلال. فالفرنسيون لم يكن لهم أن يبقوا كلّ هذه المدة لولا مساعدة المستشرقين والمبشرين. فبعددنا الى ما بعد 1830م نجد بأنّ الجزائر عانت كثيرا من الاستشراق والتبشير، فتجربة الاستعمار لم تكن فقط تتمثل في بندقيّة الجندي الفرنسي والمعمّر الذي استوطن أرضنا، لكنّه تمثّل أيضا في المستشرق الذي كان يساعد بترجماته ودراسته للدين واللغة ويقدم الأفكار للجندي لكي يستعمر المزيد من الأراضي (سعد الله، حصة حوار، بداية فترة التسعينات). كما فعل المستشرق (ماسكري) الذي كان من الممّهدين لاحتلال ميزاب بعد زيارتها، حيث أتى منها بمؤلفات وترجم بعضها (يقولون عنه إنّهُ خدم الجزائر) (الفرنسية) بكلّ قواه، في تعليمه وكتابات. وقد بين أنّ الثقافة الحقيقية لها دور تلعبه في خدمة الدولة المستعمرة ... هذا هو ماسكري الفرنسي الذي عمل ما في وسعه ليمتلك الجزائر لفرنسا، لا بالسيف ولا بالمحرث، لكن بالقلم والكلمة (سعد الله، ج 6، ص 36).

كذلك المبشر الذي ساعد على تجزئة وتقسيم العقائد وأضرّ كثيرا بشعور الجزائريين نحو وحدتهم أحيانا، لأن الكنيسة لم تأت ككنيسة مسيحية تريد أن تتعايش مع الدين الإسلامي وفق مبادئ التسامح والتعايش السلمي الحضاري بين الأديان. وإنّما جاءت أيضا لتبث التبشير في بلادنا بين الجزائريين (ومن عناصر هذا الفصل نشاط الكنيسة ودورها منذ 1830م، وتكوين أسقفية الجزائر سنة 1838م وجهود ديبوش وبافي ولافيجري في إحياء الكنيسة الكاثوليكية التي مضى على وفاتها اثنا عشر قرنا. فكان الاعتداء على المساجد بهدم معظمها وتحويل بعضها إلى كنائس، وإلى اسطبلات، وإلى مراقد للجنود) (سعد الله، ج 6، ص 7-8). ورغم محاولة ترغيب الجزائريين في النصرانية واستمالتهم لها بشقّ الطرق نتيجة الدعم المادي الذي تلقاه الكنيسة من الإدارة الفرنسية (وهذا الدعم المادي من الإدارة والحكومة ومن الجمعيات هو الذي جعل الكنيسة تزدهر وتنشط ذلك النشاط الذي جعلها تتوغل في الجبال والصّحاري، وتدخل البيوت والخيام، وتتحدّى المشاعر والعقائد، وتقوم بدور الواعظ الديني، والمستكشف الجغرافي، والطبيب، وفاعل الخير، والمعلّم، والجاسوس الخ) (سعد الله، ج 6،

ص138). فالجزائريون عارضوا حركة التبشير منذ البداية لأنهم اكتشفوا بأنها تمثل خطرا على دينهم وهويتهم الثقافية فوقفوا لها بالمرصاد ولم ينجروا وراءها فعارضوا هدم المساجد وتحويلها إلى مراقد للجنود. كما امتنعوا عن ارسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية. (وحيث ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قاومت التنصير وهاجمته بقوة، وسخرت صحفها ودروس المساجد إلى كشف مخططاته. وكان كتابها يتصدون أيضا للمنحرفين الذين وقعوا ضحية التجنس) (سعدالله، ج 6، ص140).

المطلب الثاني: الثقافة والمثقف

الفرع الأول: الثقافة وعلاقتها بالوضع السياسي

الثقافة والسياسة المتمثلة في نظام الحكم لهما علاقة تكاملية من وجهة نظر أبي القاسم سعدالله من خلال مؤلفه (تاريخ الجزائر الثقافي). فكلما كان النظام خادما للثقافة داعما لها، خلق في المجتمع ديناميكية وحب العيش والتعايش والشعور بالحرية والتحرر من براثن التخلف والانحطاط. فأبو القاسم كان ملما بمفهوم الثقافة، مدركا للعمق التاريخي الذي تلعبه في تشكيل الوعي الثقافي الحاضر (لأن الشعوب التي ليس لها ثقافة ليس لها وجود، ولا يهم بعد ذلك أن يقال أننا كنا سياسيا مستقلين أو مستعمرين مادام وجودنا الثقافي لا يتزعزع. وهذه إحدى نقط رسالة الكتاب) (سعدالله، ج 1، ص25). فوحدتنا وقوتنا في ثقافتنا الواحدة. وهذا ما يعزز مفهوم التواصل الثقافي بين المشهد الحاضر والإرث التاريخي. لأن الثقافة تعرف دائما على أنها عملية التطور الفكري والروحي والجمالي في المجتمعات عبر مختلف الحقب الزمنية المتعاقبة. فنظام الحكم عندما ينصرف عن الدور المنوط به في دعم الثقافة وأسباب تطورها وازدهارها ينتج عن ذلك ثقافة هزيلة ضعيفة على مستوى المؤسسات التي كان عليها أن تلعب دورا في تعليم وتربية النشء وتأسيس عوامل النهضة الفكرية والعلمية والأدبية داخل المجتمع. فالحكام العثمانيون كذلك (فهم لم يؤسسوا جامعة كالقروانيين أو الأزهر أو الزيتونة تبث العلم وتخرج العلماء وتحفظ اللغة وتربي العقل) (سعدالله، ج 1، ص18). على الرغم من أن المجتمع الجزائري كان يتوفر على كل المقومات التي تمكنه من تشكيل دولة قادرة على التطور والإسهام الثقافي والحضاري، مؤسسات تكون قادرة على بناء الإنسان الذي لا يقبل الاستعمار. لكن عكس ذلك انصرفوا إلى بناء المساجد والكتاتيب، ودعم التصوف (فلا غرابة إذن ألا يشجع العثمانيون العلماء والشعراء على الإنتاج في عصر كان فيه الإنتاج الأدبي والتاريخي والعلمي محصورا في بلاطات الحكام، وهم لم يعقدوا المجالس العلمية والمناظرات كما كان يفعل قبلهم أمراء بني زيان وبني حفص وغيرهم) (سعدالله، ج 1، ص18). فالإنتاج الثقافي عند أبي القاسم يتفاعل مع ما يحدث في المجتمع سياسيا وعسكريا واقتصاديا سواء بالسلب أو بالإيجاب كما حدث مع التواجد العثماني في الجزائر لكن مع مرور الوقت (فبعد النزاع السياسي الكبير الذي عانت منه هذه الثقافة في القرن العاشر (16م) الذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الحادي عشر باستقرار الأوضاع السياسية وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء ووفرة الكتب) (سعدالله، ج 1، ص19).

فمفهوم الثقافة ثابت عبر مراحل الزمن المختلفة إنما المتغير هو مكانة مقومات الهوية الثقافية الجزائرية من لغة ودين عند السلطة الحاكمة كالسياسة العثمانية أو العسكرية الفرنسية، فالإنتاج والإبداع الثقافي يقوى ويضعف ويؤثر في ثقافات الآخرين ويتأثر بثقافتهم بقدر الأهمية التي يولها نظام الحكم لها.

الفرع الثاني: وظيفة المثقف

يصرح أبو القاسم سعد الله في مقدمة كتابه (قضايا شائكة) قائلا: (ولقد انتهى عهد الدعوة إلى الوعي وعهد الدعوة إلى الإصلاح والتغيير وعهد الدعوة إلى التحرر من النير الأجنبي. وجاء عهد جديد هو في نظري عهد الثورة على النفس وغسل خطايا الماضي والحاضر المترسبة في ذاتنا) (سعد الله، حصة حوار، بداية فترة التسعينات). فهو يشير من خلال ذلك إلى مرحلة الحركات النهضة والإصلاحية التي عرفتها الجزائر إبان الثورة التحريرية، مثل جمعية العلماء المسلمين التي كان ينتمي إليها وعضوا نشطا فيها سواء داخل الوطن أو خارجه. وحركات المقاومة المختلفة مثل حركة الأمير عبد القادر في جانبها الفكري والسياسي وحركة حمدان خوجة وغيرهم ممن يمكن وصفهم بزعماء النهضة في الجزائر حيث كانت هناك دعوة للتغيير، عربي إسلامي في مواجهة التحدي الغربي الاستعماري. ثم كانت هناك دعوة أخرى وهي التحرر من نير الاستعمار الفرنسي المتمثلة في المقاومة المسلحة المتوجة في الأخير بثورة تحريرية كبرى. فكل هذا يدعونا إلى أن نغتسل كمثقفين من رواسب الخلافات والتشردم، للخروج من دائرة التخلف الثقافي الذي أصابنا في الوقت الحاضر (سعد الله، حصة حوار، بداية فترة التسعينات)، مقتدين في ذلك بمن سبقونا من مثقفي الجزائر الذين على اختلاف مشاربهم وخلفياتهم التعليمية إلا أنهم استطاعوا إيجاد أرضية توافق بينهم لأن همهم الأول كان هو التحرر من براثن الاستعمار الفرنسي الغاشم (حين بدأت النهضة الوطنية في الجزائر كان مثقفوها غالبا من خريجي المدارس الفرنسية الذين لم يكن يربطهم بماض الجزائر سوى الدين وبعض التقاليد والذكريات وقد كان هدفهم الأساسي هو التحرر) (سعد الله، ج 1، ص 13). فالجزائري مرّ بمرحلة النهضة ثم مرّ بمرحلة التخلص من الاستعمار عن طريق الثورة التحريرية. لكن هل انتهت مهمتنا بمجرد نيل الاستقلال؟ هل انتهى دورنا؟ الإجابة على هذا السؤال تتطلب شجاعة ثقافية لأنها مثقلة بمواجهة المثقف لذاته. فالدور المنوط بنا كمثقفين يدفعنا إلى التخلص من الرواسب والفخاخ التي حاول المستعمر الفرنسي نصبها لنا على مدار 130 سنة، والتي ما زلنا نعاني من تداعياتها في مشهدها الثقافي الحاضر. وهنا نتساءل ماذا قدم المثقفون للأمة في الوضع الراهن وما هي إسهاماتهم في الحفاظ على الهوية الثقافية الجزائرية؟ إذا علمنا أن المثقف الجزائري إبان العهد العثماني والذي كان متمثلا في شخص شيخ الإسلام أو شيخ الزاوية أو المدرّس... الخ - على الرغم من أن هذا الحاكم لم يكن يولي أهمية للجانب الثقافي - قد لعب دوره كاملا في تعليم وتربية النشء وتوعية المجتمع بأهمية التعلم والعلم والأدب في النهوض بالأمة ورقمها وازدهارها. فالمثقف الحقيقي هو الذي يبني مجتمعه ويرفض أن يكون ذيلا للحاكم. فيكون وفيًا لأبناء مجتمعه لا للسلطة. فهي مجرد سلط زمنية؛ حكم سياسي عثماني ثم عسكري فرنسي ثم سلط

وظيفية – سلطة تؤدي وظيفتها وترحل وتأتي أخرى بدلا عنها. فالذي يجمع بين المثقف والسلطة هو الوطن والوطنية والدفاع عن حقوق الشعب والمصلحة العليا للبلاد، ولا يفهم من هذا بأن العلاقة بين السلطة والمثقف دائما في تناقض وتضاد. ولكن لا يجب على السلطة أن تفرض وصايتها على المثقف دائما، كما أنه لا تكون للمثقف الحرية المطلقة بدون أي انتماء أو التزام اتجاه الوطن والأمة (سعدالله، حصة حوار، بداية فترة التسعينات). فهناك دائما قدر مشترك يلتقي فيه الطرفان إذا استطاعا، فالمثقف حرّ في أداء وظيفته التربوية والتوعوية والتثقيفية في المجتمع دون المساس بمقومات الأمة الجزائرية وهويتها الثقافية (اللغة والدين). (الجزائري اليوم يجب أن يعتز بهذه الثقافة والانتساب إليها ... فكما أن على الجزائري أن يفتخر بإنتاجه الثقافي الخاص، عليه أن يتباهى أيضا بأنه قد أسهم بهذا الإنتاج في حركة المدّ التاريخي والحضاري للأمة العربية والإسلامية) (سعدالله، ج1، ص25).

الخاتمة:

من خلال ما تقدّم في هذا المقال ومن تصفّحي لبعض أجزاء كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) لأبي القاسم سعدالله، وتحليل ما ورد فيها لاستنباط بعض المواقف والأفكار الثقافية التي ضمّنها فيه توصلت إلى بعض النتائج التي سأدرجها في النقاط التالية:

- الثقافة الجزائرية واحدة على الرغم من التنوع البادي عليها. فالجزائر بلد بحجم قارة ومن البديهي أن يكون لكل منطقة من مناطق الوطن شيء من الخصوصية كاللهجات والمأكّل والملبس والأغاني والأشعار الشعبية والعادات والتقاليد المحلية. ولكنها كلّها تصبّ في بوتقة واحدة هي الهوية الثقافية الوطنية القائمة على اللغة العربية الفصحى والدين الإسلامي.
- ضرورة الاهتمام بالثقافة والمثقف المتمثل في النخب الموجودة في مختلف الميادين العلمية والمعرفية وتوفير الإمكانيات لها للتّهوض بحاضر الأمة ومستقبلها. فالثقافة الحقّة لا تتوقف عند اللهجات الدّارجة (العامية) والأكل واللباس والطبوع الفنية المحلية المختلفة فحسب. وإنّما تتمثل في الفكر والعلم والأدب لأنّ (الحكم على ازدهار الحياة الثقافية في عصر من العصور يقوم على تقدّم العلوم والفنون فيها) (سعدالله، ج2، ص401).
- التعليم عنصر أساسي للتّهوض بالأمة ثقافيا وحضاريا. والاهتمام به وإعطائه المكانة التي يستحقها كونه يساهم بشكل مباشر في تربية النّشء وتوعيتهم بالتحديات التي تنتظرهم من أجل الإسهام في الثقافة العربية الإسلامية وإثرائها بإنتاجهم العلمي والفكري.
- الاستشراق والتبشير صنوان يكمل بعضهما البعض، هدفهما الأوّل والأخير غزو الشعوب بتشويه حاضرهم وطمس ماضيهم. فالصّراع صراع ثقافات بما تحمله من مقومات، مثلما حاولوا فعله في الجزائر بادعائهم أنّه لم يكن لنا ماض سياسي أو ثقافي (ذلك أنّ النّاس تعودوا على وصمهم العهد

العثماني الذي يمثل ثلاثة قرون من تاريخ الجزائر بالفراغ الثقافي والعقم الفكري. فإذا بهم يكتشفون في هذا الكتاب الدليل على حيوية الحياة الثقافية في هذا العهد (سعد الله، ج 1، ص 11).

- اعتمد أبو القاسم سعد الله في بلورة موقفه من الزاكن الثقافي بناء مقارنة تاريخية تربط الحاضر بالماضي، بحكم تكوينه الأكاديمي كمؤرخ. مقدما لنا أرضية خصبة ندرك من خلالها كرونولوجيا البناء الثقافي في الجزائر والتي تمهد الطريق لتأسيس مشروع ثقافي أصيل. فقد أراد بكتابه (تاريخ الجزائر الثقافي) أن يقدم هدية لجيل ما بعد الاستقلال يعرفهم من خلاله بتاريخهم الثقافي ويحصنهم من غزو الثقافات الدخيلة، حيث يقول في الإهداء (لقد كان المؤلفون في القديم يهدون كتبهم إلى الملوك والأمراء والأعيان والوزراء. أما أنا فإني أهدي هذا الكتاب إلى جيل ما بعد الثورة إلى أطفال الجزائر اليوم الذين سينشرون غدا كنوز الثقافة العربية الإسلامية لبلادهم ويثرونها بإنتاجهم) (سعد الله، ج 1، ص 5).

قائمة المصادر والمراجع

- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 2). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 3). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 8). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 4). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 6). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 5). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (بداية فترة التسعينات). حصة حوار. (حمراوي حبيب شوقي، المحاور) التلفزيون الجزائري.
- الجزائر العاصمة. تاريخ الاسترداد 8 1 2023، من bit.ly/3qMcsKa
- الحاج عيفة. (1 8، 2015). السيرة الذاتية لشيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله. مجلة دراسات تاريخية، 3(1)، الصفحات 1-26.
- سليم حاج سعد. (2016). التجارب الشخصية للدكتور أبو القاسم سعد الله من خلال كتابة "افكار جامعة". أعمال الملتقى الدولي أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا. وادي سوف: جامعة الشهيد حمة لخضر.
- غادة الحلايقية. (13 02، 2018). مفهوم الهوية الثقافية. تاريخ الاسترداد 20 8، 2023، من موقع موضوع: bit.ly/3OAtFy8
- مريم خالدي. (1 6، 2016). السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور أبو القاسم سعد الله. مجلة الخلدونية، 9(1)، الصفحات 245-269.
- وليد الزرقاوي. (9 04، 2019). الهوية الثقافية عند جابر عصفور. تاريخ الاسترداد 20 8، 2023، من موقع الميادين: bit.ly/3P1hLyL